

أسباب نجاح تنظيم الضباط الأحرار

تنظيم الضباط الأحرار والتنظيمات الأخرى

لم يكن تنظيم الضباط الأحرار هو التنظيم الوحيد في داخل الجيش وخارجه فقد دفعت أحوال البلاد السيئة كثيراً من المخلصين من أبناء الوطن إلى تكوين تنظيمات سرية بهدف تخليص البلاد من المتسببين في شقائه ، وكانت وسائل هذه التنظيمات للوصول لهدفهم هذا تتمثل في اغتيال بعض الخونة والمفسدين ، أو كتابة منشورات تحريضية ضدهم ، أو تنظيم مظاهرات ، أو تدمير بعض المنشآت . لكن هذه التنظيمات إذا استثنينا جماعة الإخوان المسلمين كانت قليلة العدد والعدة لا تملك الرؤية الشاملة - وإن حسنت نواياها - للإصلاح ، فهي وإن آمنت ببعض مبادئ الإصلاح فإنها لا تملك وسائل تحقيقها .

والحقيقة بعد حل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال قادتها ، واغتيال الشيخ حسن البنا زعيمها ، لم يعد هناك تنظيم قوي يعوّل عليه في تغيير النظام القائم الذي لم يعد هناك أمل في إصلاحه .

عوامل نجاح تنظيم الضباط الأحرار

الحقيقة أن تنظيم الضباط الأحرار كان حينئذ هو التنظيم الوحيد الذي يمكن أن يعوّل عليه فعل شيء لهذا الوطن فقد كان يملك بعض الأفكار الإصلاحية التي تتمثل في تطهير الجيش من عناصر الفساد والمفسدين وإقامة جيش وطني قوي ،

والقضاء على الاستعمار وأعوانه الخونة في وادي النيل . وكان التنظيم يملك تحقيق هذه الأفكار الإصلاحية بما لديه من تواجد قوي بين القوات المسلحة تمكنه من فرض رأيه ، واختيار من يمثله ، كما تمكنه من القدرة على القيام بانقلاب عسكري إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك وكان وراء نجاح هذا التنظيم عدة عوامل أهمها :

حسن اختيار أعضاء التنظيم

السبب الأول : حسن اختيار أعضاء التنظيم وخاصة أعضاء اللجنة التأسيسية الذين تكوّن منهم مجلس قيادة الثورة بعد ذلك . فيقول الشيخ أحمد حسن الباقوري الذي عايشهم عن قرب حيث عين وزيراً للأوقاف في حكومة محمد نجيب : (٧ سبتمبر ١٩٥٢) " أن أؤكد للتاريخ أن كل أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا مجموعة قلّ أن يوجد ما يفضلها من خيرة الرجال عبر التاريخ " (١) وإن كان في كلام الشيخ الباقوري مبالغة كبيرة لكنه يعبر عن صدق وطنية هؤلاء الرجال ، وإخلاصهم في عملهم .

ولا يخالف هذا الرأي في الضباط الأحرار إلا من ناله أذى منهم بعد نجاح الثورة فمحمد نجيب بعد أن نسب لنفسه تسمية تنظيم عبد الناصر بـ " تنظيم الضباط الأحرار " يقول : " وأنا أعتذر عن هذه التسمية ؛ لأنها لم تكن اسماً على مسمى فهؤلاء لم يكونوا أحراراً وإنما كانوا أشراراً ، وكان أغلبهم كما اكتشفت فيما بعد من المنحرفين أخلاقياً واجتماعياً ، ولأنهم كذلك كانوا في حاجة إلى قائد كبير

(١) نعم الباز " ثائر تحت العمامة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٠٥ .

ليس في الرتبة فقط وإنما في الأخلاق أيضاً حتى يتواروا وراءه ، ويتحركوا من خلاله، وكنت أنا هذا الرجل للأسف الشديد . لا أريد أن أبدو غاضباً أو ساخطاً أو منفعلاً بسبب ما حدث لي على أيديهم ، بعد الثورة فهذه انفعالات ذابت مع السنين ، وتلاشت مع الشيخوخة ، التي تجعل الإنسان معلقاً بين الموت والحياة ، بين السماء والأرض ، بين الوجود والعدم " (1)

والحقيقة أن محمد نجيب يحكم على هؤلاء بأثر رجعي بعد أن أسكرت بعضهم خمر السلطة إنما في تلك الفترة كان هؤلاء الضباط من خيرة الشباب المصري الوطني الشريف الذي يسعى جاهداً لخدمة هذا الوطن بكل ما يملك .

يقول عبد الرحمن الرافعي عن هؤلاء الضباط : " رجال ذوو عقيدة وإيمان، متفهمون متقاربون ، وكلهم من بيئة واحدة ، وأفكار مشتركة ، يدينون بمبادئ وطنية واحدة ، وقد استمروا في اتحادهم وتضامنهم ، لم تفرق بينهم الأحداث والنزعات الشخصية ، ولم يقع بينهم انقسام أو انشقاق مثل الذي حدث في الثورة العراقية سنة ١٨٨٢ ، أو ثورة سنة ١٩١٩ . وبقيت كتلتهم سليمة . وتغلبت على العقبات التي اعترضت طريقهم الشاق الطويل . حتى إن الذين انفصلوا منهم لم يسعوا في تأسيس هيئة أخرى مناوئة لهيئتهم الأولى . كما فعل أعضاء الوفد سنة ١٩٢١ وما تلاها . بل ظلوا رغم انفصالهم موالين ومؤيدين لزملائهم السابقين العاملين أو الساكتين لا يفكرون في خروج أو انشقاق ، وكان هذا ولا ريب من أسباب نجاح الثورة .

(1) محمد نجيب " كنت رئيساً لمصر " مرجع سابق ص ٩١ ، ٩٢ .

وثمة ميزة أخرى وهي أنهم لم يكونوا من قبل أعضاء في حزب سياسي فساروا في الثورة سيرة قومية ، ولم يتأثروا بالأهواء الحزبية أو العصبية ، وكان ذلك من سداد الرأي وعلامات التوفيق . " (1)

ونحن إن كنا نتفق مع الراجعي في انطباق هذه السمات على الضباط الأحرار قبل الانقلاب فإننا نختلف معه بعد ذلك . فبعد فترة وجيزة من نجاح الانقلاب ، وتحقيق إنجازات عظيمة للوطن كطرد الملك وإلغاء الملكية وتحديد الملكية الزراعية وبناء المدارس والتأكيد على مجانية التعليم ، والبدء في الإصلاح في شتى المجالات بدأ أعضاء مجلس قيادة الثورة في التنافس على السلطة والدس والوقية والمؤامرات كما سنرى بعد ذلك ، أما عدم وجود انقلابات فقد نجح عبد الحكيم عامر في إحباط ١٨ انقلاباً، كما قام عامر نفسه (حسب الرؤية الناصرية) بمحاولة الانقلاب على نظام عبد الناصر بعد هزيمة ٦٧ وتنحيته عن قيادة الجيش ، ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار أن الراجعي الذي انتقد جميع الأوضاع قبل الثورة وخاصة حزب الوفد (2) دون أن يمسه سوء فإن الوضع بعد ثورة يوليو قد اختلف تماماً وحرية الرأي التي كان ينعم بها قضي عليها ، لذا فلا عجب أن السنوات السبع التي أرخ فيها للثورة تكاد تخلو من نقد واحد للثورة ولجمال عبد الناصر لدرجة أنه امتدح الضباط الأحرار أنهم ليس لهم ماض سياسي حزبي وكان الأحزاب كانت سبباً نزه الضباط عنها رغم أنه كان أحد زعماء الحزب الوطني ، وطالما انتقد الوزراء غير الحزبيين وأسماهم الموظفين . (3)

(١) عبد الرحمن الراجعي " ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ " مرجع سابق ص ٤ .

(٢) كان الراجعي من زعماء الحزب الوطني المنافس للوفد حزب الأغلبية لذا فقد كان الراجعي دائم النقد لسياسة الوفد وزعمائه بحق وبغير حق لدرجة أنه اعترض على قرار الوفد بجعل التعليم الثانوي بالمجان ؛ فالمناصفة بين الحزب الوطني والوفد كانت شديدة .

(٣) راجع " مقدمات ثورة يوليو " لعبد الرحمن الراجعي مرجع سابق .

عبد الرحمن الرافعي قبل الثورة وبعدها

شتان بين ما كتبه الرافعي قبل الثورة وما كتبه بعدها لقد كانت كتاباته نائرة نافذة لدرجة أن محمد نجيب أخبره - عندما ذهب الرافعي مهتماً له بنجاح الثورة- بأن كتبه كانت الأساس للحركة التي قام بها الجيش وأنها ذخيرة وطنية للأمة .

يقول الرافعي " قابلت القائد العام في القاهرة مع الأستاذ فكري أباطة وكرنا التهئة بانتصار الثورة ، وشكرته على قرار الثورة بالإفراج عن كتابي "الزعيم أحمد عرابي" وقال لي إن كتابي كانت الأساس للحركة التي قام بها الجيش وأنها ذخيرة وطنية للأمة . " (1)

وعن الروح التي كانت تسود هؤلاء الضباط يقول السادات : " أرجع الفضل في نجاح هذه الثورة وعدم انكشاف أمر مدبريها والممهدين لها ، إلى شيء أهم كثيراً من المبادئ التي قامت عليها ، وقامت من أجلها ، إلى الصداقة العزيزة الوثيقة التي ربطت بين كل من شارك فيها صغيراً كان أم كبيراً .

وهل كان يمكن ، لولا هذه الصداقة أن يزيد عدد الضباط الأحرار قبيل الثورة على الألف ضابط ، فلا يوجد بينهم خائن ولا وجل ولا ثرثار !؟

وهل كان يمكن لولا هذه الصداقة أن تقوم الثورة فعلاً وتنجح فلا يعرف من الأحرار إلا هذا العدد الضئيل الذي ألزمته ظروف الثورة أن يظهر بوجهه على مسرح الأحداث وأن يتحمل بنفسه مسئوليات العمل الكبير !؟

(1) عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة يوليو " مرجع سابق ص ٥ .

إنها الصداقة فقط ، الصداقة التي استطاعت أن تحوط مبادئ الثورة بسياجها المتين ، وأن تحمي النفوس من نزواتها لأنها احتلت من كل قلب منزل الأطماع . وبهذا الدستور دستور الصداقة بدأ التكوين الفعلي للأحرار . " (1)

شخصية عبد الناصر قبل الثورة

السبب الثاني في نجاح حركة الضباط الأحرار يكمن في شخصية جمال عبد الناصر التي فرضت على كل الضباط الأحرار احترامها وتقديرها ، والثقة فيها ، ولم يكن جمال عبد الناصر يمتلك شخصية كاريزمية فحسب بل كان شعلة نشاط يتواجد في كل مكان يتطلبه التنظيم التواجد فيه ، فلا يوجد اجتماع يخص التنظيم إلا كان عبد الناصر أول أعضائه ، ولا يوجد مناقشة حول التنظيم إلا كان له رأياً معتبراً فيها ؛ فلا عجب أن ينتخبه أعضاء لجنة القيادة ثلاث مرات بالإجماع رئيساً عليهم أعوام ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ .

يقول محسن عبد الخالق معللاً اختيار الضباط الأحرار لعبد الناصر رئيساً للجنة القيادة : " عبد الناصر كان قبل الثورة رجلاً ودوداً منصتاً طيباً ولهذا اخترناه. " (2)

ويصفه السادات في " أسرار الثورة المصرية " فيقول : " كان جمال يطوي نفسه على كثير من الآلام الشخصية آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير ، فأثرت وفاتها في حياته تأثيراً كبيراً ، لعل من أظهره شدة الحياء التي طبعت حياته حتى اليوم ، وكان إلى حياته وهدوئه يمثل الشخصية الكاملة لأبناء الصعيد فهو

(٢) أنور السادات " أسرار الثورة المصرية " مرجع السابق ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(١) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مرجع سابق ص ٤٢ .

يكيف الحياة بمثله الصعيدية الخاصة ، فتجده وديعاً رقيقاً مليء الصدر بالحنين ، إذا لمست نفسه لمسة عاطفية قد لا تحرك أحداً من الناس ، لكنه ينقلب أسداً هصوراً في اللحظة التي يشعر فيها بأن أحداً فكر مجرد تفكير في الاعتداء عليه ، كان هذا الصديق بيننا صورة للإخاء والصدقة والاتزان والهدوء والكرامة فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعاً فكأنه في سكونه وهدوئه وطابعه الخاص معنى مجسم حي لكل المعاني والانفعالات التي يمكن استخلاصها من تفاعل العواطف الإنسانية المتضاربة في إنسان قست عليه الحياة " (1)

أما ثروت عكاشة فيقول عن جمال عبد الناصر : " كان جمال عبد الناصر الداعي الأول إلى هذا التنظيم ومن هنا أسلمنا له القيادة ، وأشهد الله أننا ما عهدنا فيه إلا نزاهة مسرفة فيما يفعل ويأتي ، وتضحية من أجل الغير ، وإنسانية فيّاضة ، وحرصاً على إغاثة كل من تنزل به نازلة مادية كانت أم معنوية ، وبدلاً لجهده وماله ووقته في سبيل قضية مصر التي كانت شغلنا الشاغل فضلاً عن حنكته السياسية ودرايته العسكرية ، وتجرده المثالي . كانت هذه الصفات التي طُبِعَ عليها هي التي أهلته لأن يقود وأن يسوس وأن يكون موضع تقدير وإعزاز . " (2)

جماعية القرار

السبب الثالث ، هو جماعية القرار فلم يكن هناك قرار مهم إلا وتناقش الضباط فيه مناقشة حرة يدلي فيها كل بدلوه لا حجر فيها على رأي ولا مصادرة فيه لفكرة وهذا في رأيي أهم ما ميز تنظيم الضباط الأحرار فقد قام على الشورى داخل لجنة القيادة.

(١) أنور السادات " أسرار الثورة المصرية " مرجع سابق ص ٣٣ .

(٢) ثروت عكاشة " مذكراتي في السياسة والثقافة " مرجع سابق ج ١ ص ٥٢ .

عن الحسن قال : " ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرمهم " وفي لفظ " إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع " فعلى الرغم من أن جمال عبد الناصر قد انتخب بالإجماع لرئاسة التنظيم فإنه لم يجنح إلى الاستبداد برأيه دون بقية أعضاء مجلس القيادة ، والحقيقة أن تمسك جميع أعضاء مجلس القيادة بمبدأ الشورى قد حدّ من نزعة جمال عبد الناصر إلى الزعامة ، والاستئثار بالرأي ، ونضرب لذلك مثلاً معروفاً:

عندما كتب حسين سري عامر مقالاً حاول التهوين فيه من شأن تنظيم الضباط الأحرار ثار جمال عبد الناصر على هذا المقال ثورة عارمة . وقرر أن يردّ على حسين عامر بقوة ليحفظ للأحرار مكانتهم ومهابتهم ومن خلف ظهر "لجنة القيادة " اتفق هو وحسن إبراهيم وحسن التهامي وكمال رفعت على اغتيال حسين سري عامر ، وأطلقوا عليه الرصاص وفشلت المحاولة . وثار بعض ضباط لجنة القيادة ثورة عارمة على عبد الناصر لاستبداده بالرأي وانفراده باتخاذ قرار خطير كهذا .

يقول خالد محيي الدين : " عبد الناصر بدأ يكرس ، بالأمر الواقع ، رئاسته للضباط الأحرار وعندما قام بمحاولة اغتيال حسين سري دون التشاور معنا ثار صلاح سالم وكذلك بغداددي . والحقيقة أن صلاح سالم كان غير راض عن الوضع المتميز لعبد الناصر في الحركة ، وكان يتساءل : لماذا جمال دون غيره ؟ وانتهاز فرصة قيام عبد الناصر بمحاولة الاغتيال دون عرضه على لجنة القيادة ليفجر الموضوع بصورة عنيفة ، وتفجر الاجتماع في مواجهة غاضبة كان أطرافها جمال وصلاح وبغداددي .

وخرج صلاح ليقابل ثروت عكاشة ليشكو له من أن جمال يفرض رئاسته على لجنة القيادة وأنه يظن نفسه كل شيء ويحاول أن يعطي لنفسه قدراً أكبر منا جميعاً ، وأنه لن

يحضر الجلسات وثار صلاح في واحدة من ثوراته المعروفة وشتم جمال أمام ثروت ، بل وأبلغ ثروت بأسماء لجنة القيادة وقال إن أكثرهم يتبعون جمال فيما يقول ، وأبلغه في نهاية الأمر أنه سيستقيل من اللجنة إذا لم يحصل على وضع مساوٍ لوضع جمال بحيث يكون له أن يعرف كل أسماء الضباط الأحرار مثل جمال عبد الناصر .

وحكى لي ثروت كل ما قاله صلاح سالم فأخذته إلى جمال وحكيما له ما حدث وطلبنا منه إيجاد تسوية مقبولة حفاظاً على التنظيم واصطحبت جمال معي إلى بيت صلاح سالم وحتى الفجر استمرت المناقشات التي انتهت بصلح ظاهري بين جمال وصلاح . " (1)

من هذه الحادثة يتبين لنا أن مبدأ الشورى وجماعية القرار تَجِدُ من نوازع النفس إلى الاستبداد وتقود إلى أرشد الآراء وسوف نرى بعد ذلك أن جميع الإنجازات التي حققتها الثورة كانت نتيجة لتحقيق مبدأ الشورى في اتخاذ القرار فلم يكن قرار ليسري إلا إذا وافق عليه أعضاء مجلس قيادة الثورة وصدّق عليه الرئيس محمد نجيب ، وأن جميع النكسات التي منيت بها الثورة كانت نتيجة لحل مجلس قيادة الثورة ، واستثثار جمال عبد الناصر بالحكم واتخاذ القرار .

نقول هذا حتى نصحح الفكرة التي رُوِّج لها بعض الكتاب الناصريين الذين ينسبوا كل الفضل لجمال عبد الناصر الذي قام بكل أدوار البطولة منذ تأسيس التنظيم وحتى نجاح الثورة أما بقية الضباط الأحرار فلم يكن دورهم يزيد عن دور الكومبارس الذي ينفذ تعليمات المخرج فقط!

(١) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ١١١ .

السبب الرابع في نجاح حركة الضباط الأحرار هو محمد نجيب فعلى الرغم من أن محمد النجيب لم يكن يشارك في اجتماعات لجنة القيادة لدواعي أمنية فإن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم كانا على اتصال دائم به والتشاور معه في كل خطوة خاصة بعد أن اختير قائداً للتنظيم في يناير ١٩٥٢ كذلك فإن كثيراً ممن انضموا للتنظيم كان أكبر حافز لهم للانضمام للتنظيم وجود نجيب على رأسه .

السبب الخامس ، منشورات الضباط الأحرار تلك التي روجت للتنظيم ، وعرفت الناس به.

أما السبب السادس ، فهو انتخابات نادي الضباط والنجاح الساحق الذي حققه محمد نجيب مرشح الضباط الأحرار .

كل هذه العوامل تضافرت لتجعل من التنظيم قوة لا يستهان بها تهدد النظام الحكام.
